

التصوف الإسلامي: ماهيته - جذوره - مقابله بالإشراق

د. يوسف ليلي

الرتبة: أستاذة محاضرة - أ.

La_boucif@hotmail.fr

قسم: الفلسفة كلية: العلوم الاجتماعية

جامعة: وهران - السانبا

مقدمة:

مصطلح التصوف في الإسلام شأنه شأن غيره من المفاهيم المستحدثة في الفكر العربي الإسلامي، مما لا يمكن التعرف عليه إلا من خلال قراءة تاريخية مفصلة ودراسة تحليلية ومقارنة لمكوناته، وعناصره الأولية إذ لا يمكن الإحاطة بالمصطلح وحدوده علميا بالوقوف عند صورته النهائية بعد أن استقر واستكمل جزئياته في صيغة معتبرة، معينة، ومخصصة، لا بد إذن من متابعة متأنية لأصوله الأولى¹ وما طرأت عليها من معان عبر التاريخ، لمن شاء أن يتعرف على النمو الداخلي للمصطلح وإذا رجعنا إلى دلالات المصطلح المختلفة في المعاجم الأجنبية وجدناها تشير إلى مجموعة متناثرة من المعاني التي تعبر عن وجهات نظر مختلفة لا يكاد يضبطها جامع لما فيها من تناقض وتضاد.

وتقدم المراجع العربية والمعاجم اللغوية الأجنبية للمصطلح الذي يقابله في اللغات الأجنبية (mysticism)، مجموعة معاني يمكن حصر أهمها فيما يلي:

- التصوف تمام الأدب.
- التصوف: خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عنك في الصفاء.
- التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من خلق بدعي.
- التصوف الأخذ بالحقائق.
- التصوف حال تضمحل فيها معالم الإنسانية.

¹ عرفان عبد الحميد فتاح، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، ادر الجيل بيروت، ط1، 1991، ص291.

القرن التالي. وكان وراء الحركة الصوفية يسمون عادة بالزهاد والعباد.

وكان هؤلاء يتميزون عن عامة المسلمين بفرط التفوق، والتوفر على العبادة، وعلى صعيد الرياضات والعشائر أخذوا بـ "الذكر" أي تكرار اسم "الله" أو العبارات التي تتضمنه (الله الوحي) "الله اكبر"، "لا إله إلا الله" وتدريباً صار الذكر يترافق بـ "الرقص" يدور به المرء على نفسه حتى يتلاشى عياء ويفقد وعيه، و"السماع" يصغي فيه إلى ما يكرر من الذكر أو يرثل من الآيات أو ينشد من الأشعار، ويترافق عادة بالموسيقى التي تعزف على آلات الطرب. وفيما بعد بالغ بعض على سائر الشعائر الدينية. فالصوفي في أي ثقافة عادة، ما يؤول تجربته إلا من منظور الدين الذي تربي عليه. لكن إذا كان منحصرًا بدرجة كافية فإنه يمكن أن يطرح هذه العقائد الدينية ويظل متحفظًا بوعيه الصوفي¹.

وقد عرف نمط الحياة الزهاد في تلك الفترة بالنقشف ونبذ الدنيا بما في ذلك قهر الجسد وتعذيبه، وقد برزت في أوساطهم نزعتان فيما يخص تحصيل أسباب المعاش، فكان جماعة منهم يدعون إلى أن يقتات المرء من ثمار عمله وإن ردوا هذا العمل على الحد الأدنى الكافي للحياة، وما زاد عنه يعطي عائده للمحتاجين الغير قادرين على الكسب. أما النزعة الثانية فتمثلت في "التوكل" في التعويل المطلق على الإله، الذي لا يعتني معه المرء بكسب قوتهن فيعيش يومه، ووقته الحاضر ويوكل إلى الله أن يرزقه غداً. كما رزقه اليوم. وفيما بعد صيغ هذا التوجه في مبدأ - الصوفي "ابن وقته"، وكان التوكل ينطوي على الرضى بقضاء الله وقدره، وتلاشي إرادة العبد في إرادة الرب، فيكون في يدي الله كالطفل في يدي الأم، أو كالميت في يدي الغسال. كانت صوفية الزهاد تنطوي على لون من اللامثالية (Non-Conformism) من اللامبالاة بتقييمات الآخرين، رضى، أو سخط، مدحا أو ذما. وقد تجسدت هذه النزعة على أشدها عند الملامتية أهل اللوم ويبدو أن هذه الحركة قد قامت، في أول الأمر، في العراق، ولكن رواجها خاصة إنما كان في خراسان، ومنها انتقلت إلى آسيا الوسطى، ومن ثم إلى سائر بقاع العالم

¹ - وولتر ستيتس، التصوف والفلسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، 1999 ص 410.

القرن التالي. وكان وراء الحركة الصوفية يسمون عادة بالزهاد والعباد.

وكان هؤلاء يتميزون عن عامة المسلمين بفرط التفوق، والتوفر على العبادة، وعلى صعيد الرياضات والعشائر أخذوا بـ "الذكر" أي تكرار اسم "الله" أو العبارات التي تتضمنه (الله الوحي) "الله اكبر"، "لا إله إلا الله" وتدرجياً صار الذكر يترافق بـ "الرقص" يدور به المرء على نفسه حتى يتلاشى عياء ويفقد وعيه، و"السماع" يصغي فيه إلى ما يكرر من الذكر أو يرتل من الآيات أو ينشد من الأشعار، ويترافق عادة بالموسيقى التي تعزف على آلات الطرب. وفيما بعد بالغ بعض على سائر الشعائر الدينية. فالصوفي في أي ثقافة عادة، ما يؤول تجربته إلا من منظور الدين الذي تربى عليه. لكن إذا كان منحصراً بدرجة كافية فإنه يمكن أن يطرح هذه العقائد الدينية ويظل متحفظاً بوعيه الصوفي¹.

وقد عرف نمط الحياة الزهاد في تلك الفترة بالتقشف ونبذ الدنيا بما في ذلك قهر الجسد وتعذيبه، وقد برزت في أوساطهم نزعتان فيما يخص تحصيل أسباب المعاش، فكان جماعة منهم يدعون إلى أن يقتات المرء من ثمار عمله وإن ردوا هذا العمل على الحد الأدنى الكافي للحياة، وما زاد عنه يعطي عائده للمحتاجين الغير قادرين على الكسب. أما النزعة الثانية فتمثلت في "التوكل" في التعويل المطلق على الإله، الذي لا يعتني معه المرء بكسب قوتهن فيعيش يومه، ووقته الحاضر ويوكل إلى الله أن يرزقه غداً. كما رزقه اليوم. وفيما بعد صيغ هذا التوجه في مبدأ - الصوفي "ابن وقته"، وكان التوكل ينطوي على الرضى بقضاء الله وقدره، وتلاشي إرادة العبد في إرادة الرب، فيكون في يدي الله كالطفل في يدي الأم، أو كالميت في يدي الغسال. كانت صوفية الزهاد تنطوي على لون من اللامثالية (Non-Conformism) من اللامبالاة بتقييمات الآخرين، رضى، أو سخط، مدحا أو ذما. وقد تجسدت هذه النزعة على أشدها عند الملامتية أهل اللوم ويبدو أن هذه الحركة قد قامت، في أول الأمر، في العراق، ولكن رواجها خاصة إنما كان في خراسان، ومنها انتقلت إلى آسيا الوسطى، ومن ثم إلى سائر بقاع العالم

¹ - ولتر ستيس، التصوف والفلسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، 1999 ص 410.

الإسلامي وكان أبرز رجالاتها أبو حفص الفرد (ت 873)، وحمدان القصار (ت 885)، وأبو عثمان الحيري (ت: 991)¹.

التصوف والإشراق:

إن التصوف كما بينه الجرجاني في حقيقته ينطوي على ثلاثة جوانب: "سيكولوجيا عبارة عن حال نفسية يشعر بها المرء بأنه على اتصال بمبدأ أسمى. فلسفياً، نزعة تقوم على الخيال والعاطفة أكثر مما تقوم على العقل والتجربة الحسية، دينياً هو علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة ويسعى إلى تصفية القلوب والطهر والتجرد يؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي"².

وبالرجوع إلى رسائل الغزالي نجده مبيناً سمات التصوف: التصوف طرح النفس في العبودية وتعلق القلب بالربوبية، فإنه تصفية القلب عن مرافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية، وإتباع رسول الله في الشريعة³. أما أبو الحسن محمد بن أحمد الفارسي، فقد أظهر حقيقة التصوف في أركان عشرة هي: أولها: تجريد التوحيد ثم فهم السماع، وحسن العشرة، وإثارة الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، وترك الاكتساب وتحريم الادخار⁴.

والتصوف الإسلامي الخالص هو في أساسه أخلاقيات مستمدة من الإسلام، ولعل هذا ما عبر عنه "ابن القيم" في "مدارج السالكين" حين قال: (واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العالم على أن التصوف هو الخلق، قال تعالى: {خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين})⁵، وبمنظرة فاحصة في تعريفات التصوف، يمكن أن نستشف مضمونه، فهو ينطوي على معانٍ أخلاقية وأحوال نفسية من تحقق بالفقر والافتقار، وإسقاط للتدبير والاختبار، ومن فناء العبد من نفسه وبقاءه بربه، وإقبال على الذكر، وخضوع لسلطان الوجد وأخذ النفس

¹-توفيق سلوم، المرجع السابق، ص 278.

²-تحقيق طه عبد الباقي سرور، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ط، 1960، ص 91.

³-الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، مطبعة السعادة، د.ط، د.ت، ص 143.

⁴-الكلابادي، نفس المرجع السابق، ص 89.

⁵-سورة الأعراف، الآية رقم 199.

بالأعمال التي لا تنافي تعاليم الكتاب والسنة. إنه بحق علم المواجيد القلبية والأحكام الباطنية، فهو يعني بالقلب وجوانحه ويدل على الأعمال الباطنية، ويبين الطريقة إليها، وكيفية التحقق، بالكمال فيها. وقد ظهر التصوف بهذه الصورة عند صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة أمثال السري السقطي¹ وأبو حمزة محمد بن إبراهيم الصوفي البغدادي²، وذو النون المصري المتوفى عام 245هـ، وأبو زيد السطامي، المتوفى عام 261هـ³.

وقد ظل التصوف مطبوعاً بطابع الحب طوال القرن الثالث الهجري. كما كان حظه من الخصائص الأخلاقية في أوائل هذه الفترة أوفر وأظهر إلى الحد الذي جعل الاستاذ مصطفى عبد الرزاق باشا يعد التصوف في أول عهده بالتكوين العلمي علماً للأخلاق الدينية الإسلامية ومعاني العبادة. إن هذا العلم مبني على الإرادة، فهي أساسه ومجمع بنائه، أو هو يشمل على تفاصيل احكام الإرادة، وهي حركة القلب، ولهذا سمي علم الباطن⁴. التصوف باختصار هو رياضة ومجاهدة وذوق وسلوكاً في الحياة، فهو منهج في المعرفة أساسه التأمل الباطني ومجاهدة روحية وسواها من السبل التي تأخذ بالصوفي السالك في مدارج المعرفة حتى ينتهي على اليقين ومشاهدة الحقائق على ما هي عليه مصفاة خالصة.

الإشراق: (Illumination)

الإشراق أو المعرفة المشرقية المقصود بها الحكمة المؤسسة على الإشراق الذي هو الكشف أو حكمة المشاركة الذين هم أهل فارس وهو أيضاً يرجع إلى الأول، لأن حكمتهم كشفية ذوقية، نسبت إلى الإشراق الذي هو ظهور الأنوار العقلية ولمعانيها وفيضانها بالإشراقات على النفس عند تجردها، وكان اعتماد الفارسيين في الحكمة على الذوق وشيعته فإن اعتمادهم كان على البحث والبرهان لا غير. ويعرف الدكتور ماجد فخري الإشراق بأنه التماس الحق عن طريق التأمل

¹ - وه وأول من تكلم في علوم التوحيد والورع ببغداد توفي 253هـ.

² - روي أنه أول من تكلم في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر والمحبة، والعشق، والقرب والأنس، توفي سنة 269هـ.

³ - مرفت عزت بالنبي، الاتجاه الإشراقي في فلسفة ابن سينا، دار الجبل، بيروت، ط1، 1994، ص 37.

⁴ - محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1984، ص 121.

الصوفي والتجربة الذوقية¹، والإشراق قديماً عند الأفلاطونيين المحدثين نقلتي العلم الخبيبي أو الإلهي عند الملأ الأعلى، عن طريق الرياضة والمجاهدة وتصفية النفس²، بحيث نصير كالمرأة الصقيلة فتعكس عليها الصور والعلوم الإلهية المنقوشة في العقول، والنفوس الفلكية، ويكون ذلك على هيئة إشراق في النفس وإحساس ذوقي دون أعمال للعقل والفكر بطريقة عملية وإتباع أساليب البحث والنظر العلميين، ولقد تبين في هذا المعنى عند أفلاطون - أعظم ممثلي الأفلاطونية المحدثين - من تأكيده على أهمية التأمل الباطني، وعكوف النفس على ذاتها، وتطهيرها من علائق البدن، فكلها رسائل تعين النفس على القيام برحلتها الروحية وتحقيق هدفها في الاتصال بالباطن، أما التطهير فهو اليقظة الحقيقية للنفس، وهو الخروج عن الجد، وهذا الخروج هو بعث جديد لها، لأنه رجوع إلى الأصل والمنهج، فتأمل النفس الله عند افلوطين مرهون بتطهيرها وابتعادها عن الانغماس في العالم المادي³، وبالرجوع إلى نصوص أفلوطين نجد أن التطهير وإن كان خير وسيلة لمعرفة الواحد، فغن المعرفة الحقيقية تكمن في داخل النفس وفي تفكيرها في ذاتها، فكل الفضائل مغروسة فيها.

ظهرت الفلسفة الإشراقية عند زهاد الهند، وفلاسفة الإغريق وحكماء العراق⁴ ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي. وقد عاشت مدرسة الإشراقيين في بلاد الفرس إلى القرن السابع عشر، ومؤسسها هو السهروردي وكان ذا اطلاع واسع وخبرة تامة بالفرق الإسلامية التي تأثر بها عامة، وبرجال مدرسة الإسكندرية وفلاسفة الإسلام السابقين بوجه خاص⁵. ومع أن الفلسفة الإشراقية التي دعا إليها، متأثرة في بدائها ونهايتها بتعاليم الفارابي، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزاعه إلى العالم العلوي وإن الإشراق عن السهروردي يطمع في الاتحاد بالله مباشرة والامتزاج بنور الأنوار، فإن هذه الفلسفة صوفية كلها أو التصوف هو كل شيء فيها⁶.

¹ - ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الدار المتحدة للنشر، د.ط، 1974، ص 401.

² - ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الدار المتحدة للنشر، د.ط، 1974، ص 401.

³ - محمد علي أب وريان، تاريخ الفكر الإسلامي، الهيئة المصرية للكتاب، ط3، 1972، ص 327.

⁴ - إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، دار المعارف، ط3، د.ت، ص 53.

⁵ - إبراهيم مذكور، المرجع السابق، ص 53.

⁶ - وقد امتد الإشراق إلى الفكر الفلسفي في الإسلام من خلال المعارف التي أدخلها الصوفية.

أي الفلسفة الإشراقية التي دعا إليها السهروردي في منهاج المعرفة ونظرياتها، والتي تقوم على الإلهام أو الكشف.

عرّف الإلهام أو الكشف عند الصوفية بالإشراق الذي هو ظهور الأنوار العقلية ولمعانيها وفيضاتها بالإشراقات على النفس عند تجردها. كما ظهر الإشراق عند فلاسفة الإسلام الكندي، والفارابي، وابن سينا من خلال نظرياتهم في المعرفة والسعادة، وعندهم أن الوصول إلى المعرفة اليقينية لا يكون إلا بإخلاص النفس من البدن وانتقال العقل من عقل بالقوة إلى عقل بالفعل إلى عقل مستفاد وعنده تتجلي الحقائق. يقول الكندي: والنفوس بسيطة، جوهرها من جوهر الله، وهي نور من نوره، وإذا فارقت البدن انكشفت لها الأشياء كلها، وصارت شبيهة بالله، والجري وراء الملذات يحول دون المعرفة الأشياء الشريفة. وإذا انصقلت النفس بالنظر في حقائق الأشياء ظهرت فيها الأشياء كما تظهر في المرأة صقيلة، وإذا فارقت البدن التذت لذة كبيرة¹.

أما الفارابي فقد بين فضل ارتياد طريق الكشف والإلهام في معرفة أسرار حقائق في كتابه "دار أهل المدينة الفاضلة" حينما عرض النظرية في السعادة. فالسعادة عنده هي الخير الأسمى الذي يمكن أن تتأله النفوس الذليلة في العالم الآخر². والسعادة هي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود بحيث لا يحتاج في قوامها إلى مادة وذلك أن تصير في حملة الأشياء البريئة عن الأجسام، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد، وإن تبقى على تلك الحال دائماً³، فالنفوس الخيرة العارفة هي التي تبقى وتدخل العالم العقلي، وكلما ازدادت درجتها في المعرفة والفضيلة في هذه الحياة علا مقامها بعد الموت، وزاد حظها من السعادة في الحياة الأخرى، وكلما كثرت الأنفس المتشابهة المفارقة للمادة واتصل بعضها ببعض كما يتصل معقول بمقول، كان التزاد من الحق، الآن بملاقة الماضين، وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم: لأن كل نفس تعقل ذاتها، وتعقل

¹ -الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، "في القول في النفس"، تج: عبد الهادي أب وريدة، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، ص 274.

² -الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق الدكتور البير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية، د.ط، 1959، ص 45.

³ -الفارابي، المصدر نفسه، ص 47.

النفوس الأخرى المشابهة لها مراراً كثيرة، وكلما زاد تعقلها زادت لذائذها¹. أما الإشراق عند ابن سينا فهو نتاج الرياضة العقلية بما فيها من ميل إلى التأمل، والبحث النظري والتشوق إلى الاستنباط. صحيح أنه اتجه إلى التصوف في أواخر حياته وتحدث عنه بكلام بليغ عذب، وخاصة في الأنماط الثلاثة الأخيرة هي "الإشارات والتنبيهات" وهو بمسلكه هذا يبدو وكأنه أراد أن يكفر عن حياة اللهو، والمجون التي انغمس فيها فارتاد طريق الصوفية لعله يجد² فيه لمأمن والملاذ.

وجملة القول في مسألة الفرق بين التصوف والإشراق، إن التصوف هو الأساس وهو القاعدة ينطلق فيها، الصوفي -الذي تخلق بأخلاق القرآن، وعمل، بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسك بالفضائل الروحانية، وقوم نفسه وطهرها من شوائبها الحسية- في مراجعه الروحي ويمكن أن يحدث له الإشراق وإن لم يكن هذا شرطاً لمسلكه الصوفي، فالإشراق منه وفضل من الله تعالى يؤتيه لمن يشاء من عبده الصالحين³.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- (1) عرفان عبد الحميد فتاح، دراسات في الفكر العربي الاسلامي، دار الجيل بيروت، ط1، 1991.
- (2) المرجع نفسه.
- (3) د. آرثر سعديف، توفيق سلوم، الفلسفة العربية الإسلامية، دار التكوين للتأليف والنشر والطبع، 2009.
- (4) وولتر سنتيس، التصوف والفلسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، 1999.
- (5) الكلابادي، هل التصوف، حقيق طه عبد الباقي سرور، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ط، 1960.
- (6) الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، مطبعة السعادة، د.ط، د.ت.

¹-الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، مطبعة الأنجل والمصرية، ط3، 1968، ص.ص 46-47.

³-د. مرفت عزت بالي، المرجع السابق، ص 46.

- (7) مرفت عزت بالنبي، الاتجاه الإشراقي في فلسفة ابن سينا، دار الجبل، بيروت، ط1، 1994.
- (8) محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1984.
- (9) ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الدار المتحدة للنشر، د.ط، 1974.
- (10) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الإسلامي، الهيئة المصرية للكتاب، ط3، 1972.
- (11) إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، دار المعارف، ط3، د.ت.
- (12) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، "في القول في النفس"، تج: عبد الهادي أبو ريذة، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت.
- (13) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق الدكتور ألبير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية، د.ط، 1959.
- (14) الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، مطبعة الأنجلو المصرية، ط3، 1968.